مراتب الفئة الأولى من المحدثين الثقاة

"The Ranks of Category of Idioms for the First Class of the Trustworthy Relaters"

حسن مظفر الرزّو، أستاذ المساعد *

Abstract: Idioms for the criticism of hadīth relaters conveyed by the hadīth imams are found sometimes to be concordant while other times they seems to be discrepant. This is closely connected to the imam's approach in evaluating the requirements of the realtor's trustwortiness and the era during which the idiom emerge. In this study, a deep examination was made to survey the category of idioms designated for the first class of the confidence relaters. Our inquiry is based mainly on the linguistics and conventional backgrounds of these idioms during the period extending from the first up to the 10th al-Hijra centuries. The exploration revealed that the rank of each idiom is dependent on its linguistic background and the standing of the trustworthy relaters distinguished by this idiom in the field of hadīth narration. Therefore, according to our fact finding these idiom's classes can be itemized by: the relaters characterized for their uniqueness in the hadīth profession, the recurrence of the idiom with dissimilar or conformed utterance، and idioms containing any of the confidence idioms supported by other acceptance idioms. Finally, we emphasis on the fact that any attempt of considering an idiom more probable than others lacks justification unless that the attempt should take into consideration the many parameters related to this subject.

Citation: Hasan Muzaffar al-RIZZO, "Marātib al-fi'at al-ūlā min al-muhaddisīn al-sikāt" (in Arabic), *Hadis Tetkikleri Dergisi* (*HTD*), V/2, 2007, pp. 73-88.

Key Words: al-Carh wa al-ta'dīl, muhaddisūn, ricāl al-hadīs, tabakāt, criticism, nakd, tevsīk.

١ ـ مقدمة:

كانت بداية ظهور عبارات توثيق وتجريح المحدثين، بعد اختمار قواعد تحمل الرواية، غير أنها افتقرت في البداية إلى عرف اصطلاحي تتكئ إليه، فاختلفت مفرداتها عند هذا وذاك، بيد أنها كانت تدور حول تأسيس دائرة الرجال الثقاة وتمييزهم عن الضعفاء والمتروكين.[1] بعدها بدأت دلالة العبارات بالنضوج تدريجيا، فأدخل علماء الجرح والتعديل في حدودها شروطا إضافية لتعريف مقومات العدالة، لدى الراوي، وتمييزه عن رجال مرتبته، أو المراتب الأخرى. لذا فقد نجم عن هذه الشروط الجديدة أن ظهرت على ساحة نقد الرجال معايير ومفردات جديدة: كالحفظ، والإتقان، وغيرها من المعايير. ولقد استمرت دائرة عبارات التوثيق والتجريح بالنمو، لظهور عبارات جديدة على ساحة علم الجرح

* مركز بحوث المعلوماتية ـ جامعة الحَدْباء بالموصل، العراق. halrizzo@gmail.com

1 الرفع والتكميل في الجرح والتعديل، لأبي الحسنات اللكنوي، الطبعة الأولى، ١٣٨٣هـ، مكتبة المطبوعات، بيروت، ص. ١٢٩.

والتعديل، إضافة إلى ازدياد تعقيدها نتيجة لاعتماد معايير أكثر تخصيصا عند صياغة تعريف الثقاة المتقنين، كذلك بدأت بنية عبارة التوثيق بالامتداد حتى أضحت تتألف من مجموعة ألفاظ تشير كل لفظة منها إلى شريحة معينة من مقومات عدالة الراوي، فتؤلف بمجموعها مصطلحا نقديا يومئ إلى تعريف مرتبة المحدث لدى أئمة الشأن. فامتلأت كتب الرجال وطبقاتهم بعبارات صيغ بعضها في بدايات ظهورها وأخرى في عصور لاحقة، فتشابكت دلالاتها باختلاف النقاد، والعصر الذي ظهرت فيه، فلكل عبارة دلالة يحددها موردها، والبنية اللغوية والاصطلاحية التي تتألف منها.

ولا يخفى على القارئ الكريم أهمية دلالة هذه الاصطلاحات في نقد طريق الحديث، والترجيح بين الروايات عند تعارضها، إضافة إلى الحاجة الماسة لتقسيم الرواة بحسب مراتبهم الاصطلاحية، مع إلقاء الضوء على دلالة هذه العبارات بمعايير اللغة والاصطلاح.

لذا وجدنا من الضروري دراسة إحدى شرائح ألفاظ التوثيق، فأستأثر باهتمامنا رجال الفئة الأولى من المحدثين الثقاة، لأنهم صفوة رجال الحديث، والمنار الذي يستدل به على صحة وسلامة مورده، فانصب جهدنا لتحقيق غايتين:

(الأولى): التنقيب عن رواة الحديث الذين تشرفوا بدخول دائرة توثيق الفئة الأولى على مر العصور، مع إجراء مسح للعبارات التي أطلقت عليهم.

(الثانية): الوقوف على الأمر الذي استمدت منه الحدود الاصطلاحية لهذه العبارات، ولرصد الاختلاف الذي وقع في دلالاتها لدى أئمة هذه الصنعة.

ونأمل أن تثمر هذه المحاولة في إلقاء الضوء على مراتب رجال هذه الفئة المباركة، والتي تجعل عملية الموازنة بين مراتب أحاديث المصطفى أكثر موضوعية عند الترجيح، كما أنها ستساهم في بيان موارد هذه العبارات ودلالاتها عبر مختلف العصور.

٢ ـ بداية ظهور عبارات التوثيق والتجريح:

تتألف عبارات التوثيق والتجريح من ألفاظ يراد منها معرفة مرتبة الراوي عند علماء الحديث ونقاده، فتقبل على أساسها روايته أو ترد، أو ترجح على رواية غيره عند التعارض. وقد جاءت ألفاظ أئمة هذا الشأن، في الحكم على الرواة متفقة حينا، ومختلفة حينا آخر، تبعا لاختلاف اجتهاداتهم في الحكم عليهم، وللعصر الذي صيغت فيه. وأن معايير العدالة والتوثيق باتت أكثر تخصيصا من تلك التي اعتمدت ببدايات الكلام في تزكية الرجال وتضعيفهم في عصر ابن سيرين. (تحتاج إلى حاشية توثيق)

روى عبد الله بن وهب عن الإمام مالك بن أنس قوله:[2] "أدركت بهذه البلدة ـ يقصد المدينة المنورة ـ أقواما لو أستسقي بهم القطر لسقوا، قد سمعوا العلم والحديث كثيرا ما حدثت عن أحد منهم شيئا،

2 ترتيب المدارك، المجلد الأول، لقاضي عياض، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ، الرباط.ص، ١٣٧.

لأنهم كانوا ألزموا أنفسهم خوف الله والزهد، وهذا الشأن ـ يعني الحديث والفتيا ـ يحتاج معه إلى رجل معه تقى، وورع، وصيانة، وإتقان، وعلم، وفهم، فيعلم ما يخرج من رأسه، وما يصل إليه غدا، فأما رجل بلا إتقان، ولا معرفة، فلا ينتفع به، ولا هو حجة، ولا يؤخذ عنهم".

إذن لم يعد اصطلاح "ثقة" في عصر ابن سيرين متطابقا في دلالاته مع ما يحمله في عصر شعبة بن الحجاج، أو تلميذه ابن القطان، لازدياد العقبات التي ينبغي اجتيازها قبل أن يقلد صاحبها لقب "ثقة". إضافة إلى هذا أصبحت الحاجة أكثر إلحاحا لصياغة ألفاظ أكثر تحديدا لتعريف الرواة الثقاة الذين تقبل روايتهم، فظهرت ألفاظ جديدة مثل: ثبت، وحجة، ومتقن، ومأمون، بعبارات مستحدثة لم تلبث أن تداولها علماء الرجال ونقادهم فأودعوها في مصنفاتهم. فظهرت كتب طبقات الرجال التي عمد أصحابها إلى جمع ما قيل في الرواة من تزكية أو جرح، ككتاب محمد بن عمر الواقدي (ت. ٢٠٧ هـ)، والهيثم بن عدي (ت. ٢٠٧ هـ)، والطبقات الكبرى لابن سعد (ت. ٢٣٠ هـ)، وآخر لعلي بن المديني (ت. ٢٣٣ هـ)، وتوالت كتب الطبقات بالظهور، تلاها ظهور كتب الضعفاء والثقاة، ككتاب يحيى بن معين (ت. ٢٣٣ هـ) في الضعفاء وآخر في الثقاة، وثالث في الجمع بينهما، وكتاب الثقاة للعجلي (ت. ٢٦١ هـ).

وقد سأل طلبة الحديث غير واحد من علماء الرجال عن أحوال الرواة، ودرجة إتقانهم، فاختلفت آراؤهم وعباراتهم باختلاف الأحوال، ولقد حفظت لنا هذه الأسئلة المدونة علما غزيرا وكشفت عن أحوال الكثير من الرجال ومراتبهم، ومروياتهم. فوصلت إلينا مسائل عباس الدوري في الرجال، والعلل لابن معين، وسؤالات جملة أخرى من تلاميذه: كأبي خلف مرثد بن الهيثم بن طهمان، وأبي إسحاق الجنيد الختلي، وعثمان بن طالوت، وإسحاق بن منصور الكوسج، وغيرهم من تلاميذه. وسؤالات عثمان بن أبي شيبة لعلي بن المديني، وسؤالات إسحق بن منصور لأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، وسؤالات أبي عيسى الترمذي للبخاري، ولأبي زرعة الرازي، وسؤالات أبي عبيد محمد بن علي الآجري لأبي داؤد، وغيرها كثير لا يتسع هذا المقام لذكرها. (حاشية توثيق)

وهكذا بدأ عدد كتب الرجال بالازدياد خلال هذا القرن، بيد أن المتتبع لألفاظ التوثيق والتجريح، على ساحة هذه الكتب، يجد بأنها كانت في بداياتها، تفتقر إلى أساس ثابت يعرف حدودها الاصطلاحية، لصدورها عن هذا الناقد وذاك، وفق ما يتراء له من حال الراوي، وبألفاظ يختارها بعيدا عن دائرة الآخرين.

ولعل أول محاولة لصياغة الحدود الاصطلاحية لهذه الألقاب قد اختمرت على يد الحافظ ابن أبي حاتم الرازي (ت. ٣٢٧ هـ)، الذي بادر بتصنيفها إلى مراتب للتجريح، وأخرى للتعديل، في مقدمة كتابه النفيس الجرح والتعديل.[3] وقد تجاوز ابن أبي حاتم طبقتي الصحابة والتابعين في تبيانه لمراتب الرواة لأنهم يقعون خارج دائرة الشك، أما أتباع التابعين فقد قسمهم إلى أربعة مراتب وقال فيهم: فمنهم الثبت الحافظ الورع المتقن الجهبذ الناقد للحديث، ومنهم العدل في نفسه الثبت في روايته

[3] الجرح والتعديل،لابن أبي حاتم الرازي، الطبعة الأولى، بدون تأريخ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد الدكن، المجلد الأول، ١.

الصدوق في نقله الورع في دينه الحافظ لحديثه المتقن فيه، ومنهم الصدوق الورع الثبت الذي يهم أحيانا، وبه تكتمل دائرة الرجال الثقاة. أما الضعيف فهو الذي ألصق نفسه بهم ممن ليس من أهل الصدق والأمانة. بيد أن ما يلفت الانتباه في هذا التصنيف هو أن أصحاب الفئة الأولى لا يقتصر الأمر على قبول حديثهم والاحتجاج به، بل يعتمد أيضا على جرحهم وتعديلهم. أما الحاكم النيسابوري فقد أشار في كتابه معرفة علوم الحديث[4] إلى مقومات رجال الفئة الأولى عند تعريفه لعدالة المحدث، فقال: وأصل عدالة المحدث، أن يكون مسلما، لا يدعو إلى بدعة ولا يعلن من أنواع المعاصي ما تسقط به عدالته. فإن كان مع ذلك حافظا لحديثه، فهي أرفع درجات المحدثين. إذن بمعيار الحاكم يكون الثقة بمنأى عن دائرة البدعة والمعصية، بينما ترتقي مرتبته إلى المرتبة الأولى إن كان حافظا.

وجاء بعده ابن الصلاح المروزي (ت. ٦٤٣ هـ) فقال في مقدمته[5] في معرض بيان الألفاظ المستعملة من أهل هذا الشأن في الجرح والتعديل: وقد رتبها ابن أبي حاتم الرازي في كتابه الجرح والتعديل فأجاد وأحسن، ونحن نرتبها كذلك، ونورد ما ذكره، ونضيف إليه ما بلغنا في ذلك من غيره.

بيد أن الذي يسبر الاصطلاحات التي أوردها ابن الصلاح في مقدمته بمعيار نقدي، يجدها قد بدأت تتقولب اصطلاحيا مع بدء ظهور عبارات التعديل والتجريح الرسمية. فلكل مرتبة ألفاظ تختص بها، أما ما ذهب إليه ابن أبي حاتم فهو صياغة مواصفات أصحاب كل طبقة دون أن يعرج إلى صياغة ألفاظها الاصطلاحية بصورة توضح معالمها. لذا فإننا نلاحظ عبارات تصف مراتب التوثيق والتجريح لدى ابن الصلاح مع بيان حدودها الاصطلاحية، فظهر لديه اصطلاحات عدّة مثل: ثقة، ومتقن، وثبت، وحجة، وغيرها من الألفاظ التي أضحت فيما بعد المدار الذي يدور حوله الحديث عن الرجال. وهكذا استمر أئمة علم الحديث ومصطلحه، بتناول اصطلاحات ابن الصلاح فتداولوها في نقد الرجال وبيان مراتبهم دونما تغيير في بعض الأحيان. بينما حاولوا في أحيان أخرى إعادة رسم الحدود الاصطلاحية لبعض التعاريف، بيد أن الحصيلة النهائية لكل هذه المحاولات لم ينشب عنها تغييرا جذريا في دلالة الاصطلاح، وبقيت جهود أئمة هذه الصنعة تدور في فلك اقتراح الطبقات التي تتألف منها مراتب التعديل أو التجريح لدى ابن الصلاح، ولم يفلحوا في إضافة شئ جديد إليها.

إلا أن ما نود قوله في هذا المقام، هو أن صياغة الاصطلاح لم تستعار دلالتها من حدود صيغت على يد علماء المصطلح، بل إنهم قد عمدوا إلى تناول الألفاظ التي اعتمدها العلماء السابقون في تقييم الرجال، فصنفوا رواة الحديث على المراتب التي تقتضيها تلك الألفاظ. وعليه فإن الحكم على اللفظ الفلاني الذي يقع في المرتبة الأولى من مراتب التعديل لا تتطابق دلالته لدى هذا الناقد وذاك في دائرة اصطلاح ابن الصلاح أو غيره من المتأخرين. ولعل الشيخ عبد الفتاح أبو غدة قد لمس هذا التباين في الدلالة عندما تكلم في حاشيته النفيسة على الرفع والتكميل للعلامة اللكنوي فقال: وهذا

[4] معرفة علوم الحديث، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص. ٥٣.
[5] مقدمة في علوم الحديث، لابن الصلاح المروزي، ١٣٨٦هـ، مطبعة الأصيل، حلب، ص. ٢٣٧.

التنسيق والتوحيد في المصطلحات الذي قام به المتأخرون رحمة الله عليهم يعتبر مدلوله في ألفاظ المتأخرين، ولا يمكن أن ينفي التباين أو التغاير الذي وقع في عبارات المتقدمين.[6]

٣ ـ عبارات توثيق الفئة الأولى بين دائرتي الاصطلاح واللغة:

بعد أن تناولنا بداية ظهور عبارات التوثيق والتجريح لدى المحدثين، بات واضحا لدينا الآن بأن هذه العبارات قد صيغت على رقعة زمانية امتدت لأكثر من ثلاثة قرون. لذا فليس ثمة شك أن هناك تباينا في دلالاتها، وخصوصا في المرحلة التي سبقت الصياغة الاصطلاحية على يد ابن الصلاح، والذين أتوا من بعده.

وعليه سنحاول في هذا المقام إلقاء الضوء على الحدود الاصطلاحية والدلالات اللغوية لهذه العبارات من خلال سبر النصوص المنقولة إلينا في هذا الميدان.

كانت محاولة ابن أبي حاتم في مقدمة كتابه "الجرح والتعديل"، المرحلة الأولى لصياغة عبارات الجرح والتعديل الاصطلاحية وإيذانا ببدء مرحلة جديدة في دائرة علم الحديث ومصطلحه، كما أنها فتحت الباب على مصراعيه أمام الذين أتوا من بعده لتناول هذه الاصطلاحات بالدراسة، فأضافوا إليها ألفاظا جديدة استقوها من حشد العبارات المنتشرة على ساحة كتب الرجال، وقعدوا قواعد لتحديد دلالاتها. (حاشية)

فقد أدخل ابن أبي حاتم في دائرة الطبقة الأولى من المحدثين الثقاة من قال فيه العلماء: "ثقة أو متقن"،[7] بينما اختار الخطيب البغدادي (ت. ٤٦٣ هـ) لفظتي "ثقة أو حجة" لرجال هذه الطبقة.[8] أما ابن الصلاح فقد أضاف اصطلاحي "ثبت أو حجة" وكذا "حافظ أو ضابط"[9] إلى قائمة ابن أبي حاتم، بينما جاء بعدهم الذهبي (ت. ٧٤٨ هـ) فتحدث في ديباجة ميزانه عن مراتب الرجال، ولم تعد لديه الألفاظ التي جاء بها من سبقه تفي بأصحاب الطبقة الأولى، فباتوا وفق حدوده الاصطلاحية الذين أطلق عليهم أئمة الصنعة عبارة: "ثبت حجة"، و"ثبت حافظ"، و"ثبت متقن"، و"ثقة ثقة".[10]

إذن لقد أضاف الذهبي ألفاظا لم تكن لدى سابقيه، مدارها على تكرار لفظ التوثيق، سواء تباين اللفظان أو تكررا. وقد سار على طريقته الحافظ العراقي (ت. ٨٠٦ هـ) في ألفيته فقال يصف أصحاب الفئة الأولى:[11]

6 الرفع والتكميل، ص. ١٢٩.
7 الجرح والتعديل، المجلد الأول، ٦.
8 الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي، بدون تأريخ، دار مكتبة الهلال، بيروت، ص. ٢٢.
9 مقدمة ابن الصلاح، ص. ٢٣٧.
10 ميزان الاعتدال في نقد الرجال، لشمس الدين الذهبي، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، المجلد الأول، ص. ٤.
11 فتح المغيث شرح ألفية الحديث، لشمس الدين السخاوي، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، المجلد الأول، ص. ٣٦١.

والجرح والتعديل قد هذبه ابن أبي حاتم إذ رتبه

والشيخ زاد فيها وزدت ما في كلام أهله وجدت

فأرفع التعديل ما كررته كثقة ثبت ولو أعدته

ثم يليه ثقة أو ثبت أو متقن أو حجة إذا عزوا

إن ما فعله الذهبي، وما تبعه عليه الحافظ العراقي هو تقليص دائرة رجال الطبقة الأولى من الرواة بعد أن باتت الاصطلاحات السابقة لا تفي بالغرض الذي تقتضيه هذه المرتبة، وذلك لاختلاف دلالات الألفاظ لديهما عما اصطلحه من سبقهم. فأصبح مفهوم ذلك الوقت ليس بمرتبة من عرف به في عصر ابن أبي حاتم. إضافة إلى ذلك فإنهم قد استعملوا مجموعة إضافية من الألفاظ التي استعملها علماء الرجال، فأضحت الطبقة الأولى تتألف من مرتبتين لدى البعض، وثلاثة لدى البعض الآخر.

لذا فإننا نجد الطبقة الأولى لدى كل من الذهبي، والحافظ العراقي، وابن الوزير (ت. ٨٤٠ هـ)[12] تتألف من مرتبتين، بينما أضحت لدى ابن حجر (ت. ٨٥٢ هـ)، كما نقله عنه تلميذه السخاوي[13] ذات ثلاثة مراتب:

المرتبة الأولى: الوصف بما دلّ على المبالغة، أو عبر عنه بأفعل، كأوثق الناس، وأضبط الناس، وإليه المنتهى في التثبت.

المرتبة الثانية:قولهم: فلان لا يُسأل عنه.

المرتبة الثالثة: ما تأكد بصفة من الصفات الدالة على التوثيق، كثقة ثقة، وثبت ثبت.

أما السيوطي (ت. ٩١١ هـ) فقد عمد في تدريبه[14] إلى إضافة ثلاثة عبارات أخرى إلى سابقيه، وهي: "لا أحد أثبت منه"، و"من مثل فلان"، و"فلان لا يُسأل عنه".

وجاء الشيخ أبو غدة[15] فأضاف في حواشيه النفيسة على "الرفع والتكميل" جملة من الألفاظ التي استقاها من مطالعاته الواسعة لكتب الرجال ك: "ثقة جبل"، و"ميزان"، و"ثقة رضا"، وغيرها من الألفاظ، فازدادت مساحة الرقعة التي تشملها هذه الألفاظ مع وجود اختلاف واضح في دلالاتها لدى المشتغلين بهذا الفن.

وقبل أن نحاول الإجابة عن هذه الخلافات الاصطلاحية، سنعمد إلى تناول هذه الاصطلاحات منذ أن استعملها نقاد الرجال وصيارفة الحديث بعيدا عن دائرة مصطلح الحديث، فنسبرها بمعيار أهل الشأن، مع البحث عن دلالتها بميزان اللغة، ثم نعرج بعدها إلى دائرة مصطلح الحديث لكي نستطيع تهيئة المناخ المناسب لإصدار حكم نقدي بصددها.

12 توضيح الأفكار الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار، لمحمد بن إسماعيل الصنعاني، الطبعة الأولى، ١٣٦٦هـ، مطبعة الخانجي، القاهرة، المجلد الثاني، ٢٦٢.
13 فتح المغيث، المجلد الأول، ٣٦١-٣٦٥.
14 تدريب الراوي شرح تقريب النواوي، لجلال الدين السيوطي، الطبعة الثانية، ١٣٨٥ هـ، دار الكتب الحديثة، القاهرة، المجلد الأول، ٣٤٣.
15 الرفع والتكميل، ص. ١٥٦-١٥٩.

لعل أكثر الألفاظ تداولا بين علماء الرجال ونقادهم هي لفظة "ثقة" لذا فإننا سنبدأ بها:

١ ـ ٣ ـ اصطلاح "ثقة":

اشتقت عبارة "ثقة" من الجذر الثلاثي "وثق". يقال: وثقت بفلان، أثق به وأأتمنه، فهو ثقة.ووثقت الشيء: أحكمته، وناقة موثقة الخلق: محكمة.[16] ووثاق، ووثق: صار وثيقا، أو أخذ الوثيقة في أمره: أي بالثقة.[17] والوثاق أو الوثاق: ما يشد به، أو أوثقه فيه: شده، ووثقه توثيقا.

يبدو واضحا من الاشتقاقات اللغوية لهذا الاصطلاح، بأنه يحمل بين ثناياه ما يوحي بأن من يطلق عليه هذا الوصف، مؤتمن الجانب على عقيدته، يأخذ بالوثيقة في أمر دينه، ولا يلج إلى دائرة الهوى والبدعة كما أنه أمين على ما ينقل من روايات، لمجانبته الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

هذه محمولات الاصطلاح لدى المتقدمين، أما "الوثاق" و"الإحكام"، فهي من المحمولات التي عمد المتأخرون إلى اعتبارها، لدخولها إلى ساحة الحدود الاصطلاحية لهذه العبارة بمعيارهم. يحتاج إلى توثيق هذا الكلام عند كل فريق.

٢ ـ ٣ ـ اصطلاح "ثبت":

اقتبس أئمة الشأن هذا الاصطلاح من الجذر الثلاثي "ثبت"، يقال: ثبت الشيء، يثبت ثباتا، وثبوتا، فهو ثابت، وثبت، وثبيت. ويقال: ثبت فلان في المكان، يثبت، ثبوتا، فهو ثابت، إذا أقام به. وفرس ثبت: ثقف عدوه، ورجل ثبت الغدر: إذا كان ثابتا في قتال أو كلام.[18]

والثبت ـ بالتحريك ـ الحجة والبينة، والثبيت: الثابت العقل.

قال طرفة بن العبد.[19]

فالهبيت لا فؤاد له والثبيت قلبه قيمه

وتثبت في الأمر والرأي، واستثبت: تأنى فيه ولم يعجل، واستثبت في أمره إذا شاور، وفحص عنه. وثابته، وأثبته: عرفه حق المعرفة.[20]

قال السخاوي:[21] ثبت، بسكون الموحدة، الثابت القلب واللسان والكتاب، وفي المصباح المنير، يقال للرجل: ثبت، إذا كان عدلا، ضابطا.

والثبت عند المحدثين، ثبتان: الأول من اعتمد على حفظه متعاهدا مروياته بالضبط. والثاني من عمد إلى كتابة مسموعاته فضبطها وحافظ عليها من التغيير. (حاشية توثيق) قال أبو هارون الخريبي:[22]

16 لسان العرب، لابن منظور الأفريقي، ١٣٧٥هـ، دار صادر، بيروت، المجلد الرابع، ٦٧٨.
17 القاموس المحيط، لمحمد بن يعقوب الفيروزآبادي، ١٤٠٣هـ، دار الفكر، بيروت، المجلد الثالث، ٢٨٧.
18 لسان العرب، المجلد الأول، ٣٤٦.
19 نفس المرجع، المجلد الأول، ٣٤٧.
20 القاموس المحيط، المجلد الأول، ١٤٤-١٤٥؛ لسان العرب، المجلد الأول، ٣٤٧.
21 فتح المغيث، المجلد الأول، ٣٦٣.

سمعت يحيى بن معين يقول: هما ثبتان، ثبت حفظ، وثبت كتاب. والثبت أعلى درجة من الثقة، لتوفر جملة من الصفات لديه، لا تحتملها محمولات لفظة "ثقة". ويبدو هذا الفرق واضحا لدى صيارفة الرجال، فنقل عن معاوية بن صالح،[23] قال: "سمعت يحيى بن معين يقول: أبو خالد الأحمر ثقة، وليس بثبت".

٣ ـ ٣ ـ اصطلاح "حجة":

اشتق هذا اللفظ من الفعل الثلاثي "حجج"، والحجة: الدليل والبرهان، وقيل: الحجة ما دوفع به الخصم. قال الأزهري:[24] الحجة، الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة.

استعمل الخطيب البغدادي هذا الاصطلاح وجعله مرادفا لاصطلاح "ثقة"، وبوأهما مكان الصدارة بين عبارات التوثيق، فقال في كفايته:[25] "فأما أقسام العبارات بالإخبار عن الرواة، فأرفعها أن يقال حجة، أو ثقة". أما يحيى بن معين وأقرانه فقد اعتبروها أعلى درجة من الثقة. فقد سئل يحيى بن معين عن الحجة، فقيل له: "محمد بن إسحاق منهم؟ فقال: كان ثقة، إنما الحجة: عبيد الله بن عمر، ومالك بن أنس، والأوزاعي، وسعيد بن عبد العزيز".[26]

بالمقابل وضع ابن أبي حاتم الحجة في المرتبة الأولى وصنف فيها الذين يتفق أصحاب الشأن على إمامتهم دون اختلاف، فنقل عن أبيه بقوله: "سمعت أبي يقول: الحجة على المسلمين، الذين ليس فيهم لبس، سفيان الثوري، وشعبة بن الحجاج، وحماد بن زيد، وسفيان بن عيينة".[27]

٤ ـ ٣ ـ اصطلاح "إمام":

أشتق هذا اللفظ من الفعل الثلاثي "أمم"، الذي يحمل بين طياته أكثر من معنى، نذكر منها:

١ ـ الأم ـ بالفتح ـ القصد، أمه، يؤمه، أما: إذا قصده، وشاهده كما في قوله تعالى: "فتيمموا صعيدا طيبا".[28] قال ابن السكيت: "أي اقصدوا الصعيد الطيب. ويقال: أمه، يؤمه، أما، وتأممه: أي هم على طريق ينبغي أن يقصد".[29]

22 تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني، الطبعة الأولى، ١٣٢٦ هـ، دائرة المعارف العثمانية، حيدآباد الدكن، المجلد الخامس، ص. ٢٦٠.
23 الضعفاء الكبير، للعقيلي، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، المجلد الثاني، ص. ١٢٤.
24 لسان العرب، المجلد الأول، ٥٧٠؛ القاموس المحيط، المجلد الأول، ١٨٢.
25 الكفاية، ص. ٢٢.
26 تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للحافظ أبي الحجاج يوسف المزي، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، المجلد العاشر، ٥٤٣؛ التعديل والتجريح لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض، المجلد الأول، ٢٨٣.
27 الجرح والتعديل، المجلد الأول، ١١.
28 سورة المائدة، آية ٦.
29 لسان العرب، المجلد الأول، ١٠١.

٢ ـ الإمة: الحالة والنعيم، والأمة: الشرعة والدين. وقد ورد في التنزيل العزيز: "إنا وجدنا آباءنا على أمة"،[٣٠] وهي مثل السنة أو الطريقة في الدين، يقال: فلان لا أمة له: أي لا دين له ولا نحلة.[٣١]

٣ ـ تأمم به، وأتم، وأم القوم، وأم بهم: تقدمهم، وهي الإمامة. والإمام كل من ائتم به قوم، كانوا على الصراط المستقيم، أم كانوا ضالين. قال ابن سيده: الإمام ما ائتم به من رئيس وغيره، والجمع أئمة، والإمام الذي يقتدى به. تحتاج إلى حاشية للتوثيق

٤ ـ أم الشيء: أصله وعماده. قال ابن دريد:كل شيء انضمت إليه أشياء فهو أم لها، وأم القوم: رئيسهم،[٣٢] وكذلك قوله تعالى: "واجعلنا للمتقين إماما".[٣٣]

لقد زخرت كلمة "إمام" بمعان تستوعب محمولات هذا الاصطلاح لدى أئمة الجرح والتعديل، لأن من يطلق عليه هذا اللفظ، فهو ممن يقصده أهل الصنعة لينهلوا من علومه، وهو دليل يسترشد بمعرفته في ميدان علم الحديث، متبوئا مكان الصدارة بين أقرانه، حتى أصبح مجتمع أئمة هذا الشأن، يغترفون من علومه، ويتزاحم طلبة الحديث حول حلقته، ليظفروا بالمزيد من علومه في هذا المضمار. لذا فلا غرو أن تناط هذه العبارة بجهابذة علماء الحديث ونقاده كسفيان الثوري، وعبد الرحمن بن مهدي، ومالك بن أنس، وغيرهم من أئمة هذه الصنعة. قال ابن مهدي:[٣٤] أئمة الزمان في عصرنا أربعة: سفيان الثوري في الكوفة، ومالك بن أنس بالحجاز، والأوزاعي بالشام، وحماد بن زيد بالبصرة.

٥ ـ ٣ ـ اصطلاح "مأمون":

صيغ هذا الاصطلاح من الجذر الثلاثي "أمن"، كفرح، أمنا، وأمانا، بفتحهما، وأمنة، وأمنا، محركتين، وأمنا، بالكسر، فهو أمين. وأمن، والأمانة ضد الخيانة، وقد أمنه تأمينا، وائتمنه، قد أمن، فهو أمين، وأمان، مأمون به ثقة.[٣٥] و"مأمون" عبارة أطلقها المحدثون على من يثق بدينه وعدالته، دون النظر إلى ضبطه وإتقانه. روى عبد الرحمن بن أبي الزناد عن أبيه:[٣٦] قال أدركت بالمدينة مائة، كلهم مأمون ما يؤخذ عنهم الحديث، يقال ليس من أهله. ونقل عن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن عمر الأصبهاني قال:[٣٧] "سمعت عبد الرحمن بن مهدي، وقيل له: أبو خلدة؟ فقال: كان صدوقا، وكان مأمونا، الثقة سفيان وشعبة".

30 سورة الزخرف، آية ٢٢.
31 لسان العرب، المجلد الأول، ١٠٠١.
32 لسان العرب، المجلد الأول، ١٠٤.
33 سورة الفرقان، آية ٧٤.
34 الجرح والتعديل، المجلد الأول، ١١.
35 القاموس المحيط، المجلد الرابع، ١٩٧.
36 تهذيب الكمال، المجلد الأول، ١٦١.
37 الجرح والتعديل، المجلد الثاني، ٣٧.

٦ ـ ٣ ـ اصطلاح "متقن":

أتقن الشيء: أحكمه، والإتقان: الإحكام للأشياء. قال تعالى في كتابه العزيز: "صنع الله الذي أتقن كل شيء".[٣٨] ورجل تقن، متقن للأشياء، وحاضر المنطق والجواب. وتقن رجل كان جيد في الرمي يضرب به المثل لم يكن يسقط له سهم. قال أبو منصور: الأصل في التقن ابن تقن هذا، ثم قيل لكل حاذق بالأشياء متقن.[٣٩]

وقد شاع استخدام هذه العبارة للدلالة على إحكام المحدث لصنعة الحديث، وإتقانه لهذا الفن. أما الإمام عبد الرحمن بن مهدي فقد أناط الإتقان بالحفظ دون غيره من المقومات فقال:[٤٠] "الحفظ هو الإتقان".

٧ ـ ٣ ـ اصطلاح "حافظ":

حفظ الشيء حفظا، ورجل حافظ، وحفيظ. قال ابن سيده: الحفظ نقيض النسيان وهو التعاهد، وقلة الغفلة. وقال الأزهري: رجل حافظ، وقوم حفاظ: وهم الذين رزقوا حفظ ما سمعوا، وقلما ينسون شيئا يعونه.[٤١]

وللحافظ في عرف المحدثين شروط، إذا اجتمعت في الراوي سموه حافظا. فهو لديهم من اشتهر بالطلب والأخذ من أفواه الرجال، لا من الصحف، والمعرفة بطبقات الرواة ومراتبهم، والمعرفة بالتجريح والتعديل، وتمييز الحديث الصحيح من السقيم حتى يكون ما يستحضره من ذلك أكثر مما لا يستحضره، مع استحضار الكثير من المتون.[٤٢]

وتعتبر هذه الشروط مشددة إذا ما قورنت مع دلالة هذا اللفظ عند المتقدمين، فالإمام سفيان الثوري يؤكد في إحدى عباراته بأن الغلط لا يفلت منه أحد، وأن الحافظ هو الذي يغلب عليه حفظ حديثه، وإن غلط في بعض المواطن.[٤٣] وكذلك الحال لدى بعض المتأخرين كابن رجب الحنبلي[٤٤] الذي يقول: من أقام الأسانيد وحفظها وغير المتون تغييرا لا يغير المعنى، فهو حافظ ثقة يعتبر بحديثه.

إضافة إلى الألفاظ التي استقصينا دلالتها بمعيار اللغة والاصطلاح، فقد وظف نقاد الرجال ألفاظا أخرى لتعميق حدود بعض العبارات، وزيادة مساحة دلالتها الاصطلاحية. فعمدوا إلى استخدام عبارة"ضابط" التي تحمل بين طياتها معاني الحزم في الرواية وأخذها،[٤٥] وعبارة "جبل"، وقد أكثر من

38 سورة النمل، آية ٨٨.
39 القاموس المحيط، المجلد الرابع، ٢٠٥؛ لسان العرب، المجلد الأول، ٣٢.
40 الكفاية، ص. ١٦٥.
41 القاموس المحيط، المجلد الثاني، ٣٩٥؛ لسان العرب، المجلد الأول، ٦٦٣.
42 توضيح الأفكار، المجلد الأول، ١١٨.
43 تهذيب الكمال، المجلد الأول، ١٦١.
44 شرح علل الحديث،، لابن رجب الحنبلي، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ، مطبعة العاني، بغداد، ص. ١٤٣.
45 القاموس المحيط، المجلد الثاني، ٣٧٠.

استعمالها الدارقطني عند توثيقه للرجال، والتي تطلق على سيد القوم وعالمهم.[٤٦] فكأن صاحبها قد فاق أقرانه في هذه الصنعة، فسادهم بعلمه. كذلك استعيرت عبارة "نبيل" تلويحا إلى ذكاء ونجابة الثقة الذي تطلق عليه لتزداد الثقة بمروياته.[٤٧]

أما عبارة "رضا" فقد استعملت من باب النعت بالمصدر، وهو مطرد في كلام العرب، يقولون: هو رضا، كقولهم: هو عدل أو ثقة. حاشية وقد وردت هذه اللفظة بعبارات مختلفة في مواضع كثيرة من كتب الجرح والتعديل. غير أن ما نود التنبيه عليه في هذا المقام هو أن هذه الأوصاف لا تصلح أن تكون بمفردها دليلا على عدالة الراوي، لأن بينها وبين العدالة عموم وخصوص، فقد توجد العدالة بدون هذه الأوصاف، أو قد تنعدم مع وجودها. قال السخاوي:[٤٨] إن الوصف بالضبط والحفظ، وكذا الإتقان لابد أن يكون في عدل.

كذلك ينبغي أن يكون حاضرا في ذهننا على الدوام اختلاف دلالة هذه العبارات باختلاف العصور رغم اتحاد المنبع الذي نهل منه المتقدمون والمتأخرون. وهذا ما سنحاول أن نبرهنه بعد أن نمنح لأنفسنا فرصة كافية لكي نرتع في رياض الفئة الأولى من المحدثين الثقاة، فنستأنس بالعبارات التي وظفت لتوثيقهم، ونعكف على سبر دلالاتها، واضعين نصب أعيننا الحقبة الزمنية التي ظهرت فيها، لنفيد من هذا كله في إيجاد معيار تحدد من خلاله دلالة كل عبارة منها.

٤ ـ دلالة عبارات التوثيق:

يتجلى مما ذكرناه في شروط من تقبل روايته، بأن مدار نقد الرجال يرتكز على محورين، هما العدالة والإتقان. لذا فلن يكون مستغربا أن يوظف نقاد الرجال عباراتهم التي تحوم بمعانيها حول هذين المحورين، للحكم على رواة الحديث.

ومن يعكف على دراسة بنية العبارات المنقولة في كتب الجرح والتعديل فسيجد بأن دلالة هذه العبارات تنقسم إلى:

أ ـ عبارات تفيد امتياز أصحابها بكافة صفات العدالة والإتقان، بحيث لا تتسلل أية شبهة إلى ساحة من أطلقت عليهم هذه العبارات. وتشمل هذه الفئة عبارات: "أمير المؤمنين"، و"أحد الأحدين"، و"إليه المنتهى في التثبت"، و"إمام الدنيا"، و"لم أر مثله"، و"من أفضل أهل زمانه"، و"من أثبت الناس"، وغيرها كثير.

ب ـ عبارات تقتضي اتصاف أصحابها بأكثر من صفة من صفات محوري القبول بحيث تلقي الضوء على تبوء صاحبها مرتبة متقدمة بين أقرانه. وتشمل هذه العبارات: "إمام ثقة حافظ"، و"ثقة حافظ متقن"، و"ثقة مأمون إمام"، و"ثقة متقن ثبت"، و"ثقة متقن أمين"، وغيرها كثير.

وفي تكرار ألفاظ التوثيق دلالة واضحة على توافر أكثر من قرينة لعدالة الراوي، فتزول أي سحابة للشكوك من حوله، لأن في إطلاقهم عبارة "إمام ثقة حافظ" دليل على أن صاحبها ليس عدلا فحسب،

46 نفس المرجع، المجلد الثالث، ٣٤٤.
47 نفس المرجع، المجلد الرابع، ٥٥.
48 فتح المغيث، المجلد الثاني، ٣٦٤.

بل هو من أئمة الصنعة الذين يقصدهم المشتغلون في هذا الفن. كذلك فإن في عبارة "ثقة حافظ متقن" إشارة إضافية إلى توفر صفات العدالة والضبط مع الإتقان الذي يؤشر بوضوح على إحكام صاحبها لصنعة الحديث.

ج ـ عبارات تحوي لفظين، يقع كل منهما في أحد محوري النقد، سواء اتحد اللفظان، أو تباينا. وتشمل عبارات: "ثقة ثقة"، و"ثقة ثبت"، و"ثبت ثبت"، و"إمام ثبت"، و"ثقة حافظ"، و"ثقة حجة"، و"ثقة متقن"، وغيرها.

ويستفاد من العبارات التي تحوي على ما تباين لفظه، إفادة العدالة وزيادة فإذا قيل: ثقة ثبت، فقد ثبتت عدالة الراوي من خلال اللفظة الأولى، بينما تفيد الثانية حسن ضبطه. أما العبارات التي تحوي ما تكرر لفظه، ففيها تأكيد لفظي لزيادة التقرير، والذي يوحي بارتقاء مرتبته على مرتبة الذي أطلقت عليه العبارة دون تكرار.

د ـ عبارات أطلقها النقاد بمعرض الدفاع عن أحد الرواة وبصيغة تدفع جميع الشبهات عن ساحته. وتحمل هذه العبارات صفة المبالغة بتكرير لفظة التوثيق إلى الحد الذي يدرأ الشبهات التي تحوم حوله. وتشمل هذه الفئة عبارات:"ثقة ثقة ثقة ثقة ثقة ثقة ثقة" التي أطلقها سفيان بن عيينة عند تزكيته لعمرو بن دينار.

إضافة إلى كل ما ذكرناه حول دلالات عبارات التوثيق، ينبغي أن لا يغيب عن أذهاننا بأن هذا الأمر يرتبط ارتباطا جوهريا بالحقبة الزمنية التي ظهرت فيها هذه العبارات، أي أن دلالة العبارات "أ ـ د" تناط حصرا بالفترة الزمنية التي نشطت فيها حركة نقد الرجال، أي من النصف الثاني من القرن الأول الهجري ولغاية بدايات القرن الخامس الهجري. أما الفترة التي تلت هذه الحقبة، فإن العبارات التي ظهرت فيها قد استعيرت وفق منظور تاريخي لمصنفات المناقب، وطبقات الصفوة، فأغفل عند إطلاقها الجانب النقدي الذي اعتمده أساطين هذا الفن عند التكلم في الرجال. لذا فإن الترجيح بين العبارات ينبغي أن يستند إلى معايير إضافية تتجاوز البنية اللغوية والاصطلاحية.

٥ ـ عبارات التوثيق ونقاد الرجال:

سنتوقف برهة من الزمان لإلقاء مزيد من الضوء على بدايات ظهور عبارات التوثيق، وبنيتها اللغوية حسب التسلسل الزمني لظهورها على ساحة علم الجرح والتعديل. وعليه فإننا إذا حاولنا أن نتوغل بين العبارات لكي نتلمس بدايات ظهورها، فسنعثر على أكثر من عبارة شاع استعمالها في نهايات القرن الأول الهجري وبداية القرن الثاني.

فهناك عبارة " ثبت"، قد أطلقها ابن سيرين (ت. ١١٠ هـ)، وعبارة "لم أر مثله" لدى عبد الله بن عون (ت. ١٥١ هـ)، وشعبة بن الحجاج (ت. ١٦٠ هـ)، و"ما رأيت أفضل منه" لدى أبي حنيفة (١٥٠ هـ)، وعبارة "مصحف" لدى سفيان الثوري (ت. ١٦٠ هـ)، وعبارة "مصحف مصحف" لدى شعبة، وغيرها كثير.

أما في النصف الثاني من القرن الثاني، فنلحظ بوضوح توظيف ألفاظ جديدة بعبارات التوثيق، فهناك عبارة "ثقة جليل" لدى زكريا بن يحيى النيسابوري (١٨١ هـ)، وعبارات "أمير المؤمنين"، و"ثقة

ثقة ثقة ثقة"، و"ثقة خيار" لدى سفيان بن عيينة (ت. ١٩٨ هـ)، وعبارة "إمام في الحديث" لديه ولدى عبد الرحمن بن مهدي (ت. ١٩٨ هـ)، وعبارة "ثقة ثقة" لدى وكيع بن الجراح (١٩٧ هـ)، و"ثقة مأمون" لدى يحيى بن سعيد القطان (ت. ١٩٨ هـ)، و"صدوق مأمون خيار" لدى عبد الرحمن بن مهدي، إضافة إلى العبارات التي تحمل صيغة "أفعل" التفضيل، والتي باتت أكثر شيوعا لديهم، وبألفاظ متقاربة المعنى مختلفة المبنى.

مع بدايات القرن الثالث الهجري، ازدادت عبارات التوثيق ثراء بألفاظ جديدة، فظهرت عبارة "ثبت حافظ"، و"ثبت متقن"، و"ثقة حجة"، و"ثقة وزيادة"، و"حافظ متقن"، لدى الإمام أحمد بن حنبل (ت. ٢٤١ هـ). أما محمد بن عدي فقد استعمل عبارات مستحدثة، كعبارة "ثقة ثبت حجة"، و"ثقة ثبت حجة عدل"، و"ثقة ثبت مأمون حجة"، و"ثقة حجة مأمون"، و"ثقة حجة رفيع مأمون". حاشية توثيق وهي عبارات ذات طابع وصفي أطلقها كمؤرخ، فيكيل المديح لأئمة الحديث بعيدا عن دائرة علم الحديث واصطلاحه. بيد أن هذا لا ينفي ظهور اصطلاحات تحوي أكثر من لفظة للتوثيق لدى نقاد الرجال، فهناك عبارة "إمام ثقة حافظ"، و"ثقة إمام"، و"ثقة حافظ متقن"، و"ثقة صدوق حجة"، وثقة مأمون إمام"، و"ثقة متقن ثبت"أطلقها أبو حاتم الرازي (ت. ٢٧٧ هـ) على أكثر من محدث، وهو من أئمة الصنعة. حاشية

ومع بدايات القرن الرابع الهجري، شرع ابن أبي حاتم (٣٢٧ هـ) بتهذيب هذه الألفاظ وترتيبها في سفره الجليل"الجرح والتعديل"، ثم جاء من بعده الخطيب البغدادي (ت. ٤٦٣ هـ)، ثم ابن الصلاح (ت. ٦٤٣ هـ) الذي أرسى الدعائم الاصطلاحية لعبارات التوثيق والتجريح التي تناولها المتأخرون عنه، فأضافوا إليها هذا الاصطلاح وذاك من التربة الخصبة لنقاد الحديث الأوائل والتي احتوت على حشد كبير من العبارات.

بالمقابل انتشرت اصطلاحات وعبارات ابتدعها المؤرخون وأصحاب كتب المناقب والطبقات الذين لم يبخلوا بكيل عبارات التوثيق من مورد المحدثين، فظهرت عبارات لم يعهدها نقاد الرجال، تخفي بين طياتها دلالات تخالف ما عهدناه لديهم. لذا فإن العبارات التي ظهرت في الفترة التي تلت القرن الرابع الهجري، لم تصدر عن المنهل النقدي لرجال الصنعة، بل احتوت على عبارات مديح أكثر من عبارات التوثيق التي تداولها المشتغلون في ميدان الجرح والتعديل، ولذلك فليس من المستغرب بأن تجد لدى الذهبي (ت. ٧٤٨ هـ) من أطلق عليه عبارة "إمام حجة"، ولا ترتقي مرتبته عن درجة ثقة لدى المتقدمين أو تجد السمعاني (ت. ٥١٠ هـ) يطلق عبارة "حافظ ثقة متقن" على رجل لا يرتقي إلى هذه المرتبة لدى صيارفة الرجال.

وخلاصة القول في هذا المقام هي:

أ ـ إن ظهور عبارات توثيق الفئة الأولى للمحدثين الثقاة لدى من عرفوا لدينا برواد الحديث عن الرجال كابن سيرين، وابن عون، وشعبة، وغيرهم، يشير بوضوح إلى أن بدايات الكلام عن الرجال قد ابتدأت في مرحلة سابقة، وذلك لنضوج عبارات التوثيق لديهم بشكل ملموس.

ب ـ إن حشد العبارات التي زخرت بها الفترة الممتدة بين القرن الثاني الهجري ونهايته، تحمل بين طياتها ما يؤكد عمق دلالة الاصطلاح لديهم وأن مراتب الرجال كانت واضحة لديهم لا لبس فيها، إلا

أنهم لم يعمدوا إلى ترتيبها أو تهذيبها في مدوناتهم كما فعل ابن أبي حاتم والذين أتوا من بعده. أي بعبارة أخرى، لا ينطوي عمل ابن أبي حاتم على إضافة جديدة في هذا المضمار، لأن العبارات قد تداولها أكثر من ناقد أو صيرفي للرجال وبدلالة متقاربة، وهذا يشير بوضوح على وجود اتفاق على دلالة بعض هذه العبارات في تلك الفترة المتقدمة.

ج ـ إن الاصطلاحات والعبارات التي أودعها ابن أبي حاتم في مقدمة "الجرح والتعديل" والخطيب البغدادي في كفايته، وابن الصلاح في مقدمته، والتي أصبحت فيما بعد المنهل الأساسي لكل المشتغلين في ميدان الجرح والتعديل، لم يعمد أصحاب المصنفات المذكورة إلى صياغتها بجهد شخصي، بل قد استعاروها من عبارات المتقدمين قياسا على مرتبة الرواة الذين أطلقت عليهم.

د ـ إن ميل المتأخرين إلى إطلاق عبارات التوثيق على المتقدمين أو المتأخرين، لم تنبع وفق المعيار النقدي الذي تبناه أئمة الصنعة، أي أنها لا تحمل نفس الدلالة لتلك التي تداولها المتقدمون. لذا فإن هذه العبارات لا يمكن أن تصبح موردا ينهل منه المشتغلون في هذا الميدان، بل ينبغي التريث أمامها وعدم اعتمادها في توثيق الرواة بل ويجب يتم التعامل معها بنفس معيار التعامل مع عبارات كتب المناقب، كحلية الأولياء، وصفوة الصفوة، وتذكرة الحفاظ، وغيرها من الكتب التي ظهرت في بدايات القرن الخامس الهجري والفترة التي تليها، والتي لم يبخل أصحابها بكيل المديح للسلف بعيدا عن دائرة الاصطلاح.

٦ ـ مراتب الفئة الأولى من المحدثين الثقاة:

بعد أن اكتملت رحلتنا مع عبارات الفئة الأولى من المحدثين الثقاة، وألقينا الضوء على البنية اللغوية والاصطلاحية لتلك العبارات، ثم حاولنا تتبع التطور التاريخي لهذه البنية، وأخيرا عمدنا إلى تناول دلالة هذه العبارات في ميدان مصطلح الحديث. لم يتبق أمامنا سوى بيان مراتب أصحاب هذه الفئة على ضوء ما وجدنا من عبارات توزعت بين كتب أئمة الحديث وصيارفة رجاله.

إذن لن نعرج في هذه المرحلة إلى استعارة عبارات التوثيق من كتب الاصطلاح الموجودة بين أيدينا، بل سنعمد إلى العبارات التي استوعبناها في هذا المبحث لكي نحدد المراتب. وعليه ستنتجه الموازنة التي سنعتمدها بين العبارات بالأساس نحو محورين:

أ ـ المحور الأول الذي يتضمن سبر دلالة العبارة اصطلاحيا.

ب ـ أما المحور الثاني فيهدف إلى تقييم دلالة العبارة على ضوء هوية الرجال الذين نالوا شرف الاتصاف بها.

ولذلك فإن المرتبة التي تتبوأها عبارة التوثيق ترتبط بدلالتها الاصطلاحية، وبالرواة الذين قد أطلقها النقاد عليهم. فترتقي العبارة بميزان المصطلح بارتقاء المرتبة التي يتبوأها المحدث الذي نالها. على هذا الأساس، فإن مراتب الفئة الأولى من المحدثين الثقاة تتحدد بالعبارات التالية:

١ ـ ما يدل على التفرد بالصنعة والإمامة فيها:

وقد أطلق هذا النوع من العبارات على أساطين الحديث ونقاده، الذين لم يختلف في جلالتهم وإمامتهم، وتشمل عبارات:

أ ـ أمير المؤمنين في الحديث.

ب ـ صيغة "أفعل" التفضيل بجميع اشتقاقاتها:

وتشمل عبارات "أثبت الناس"، و"أحد الأحدين"، و"أحفظ الأمة"، و"من أفضل أهل زمانه"، و"ما رأيت أحفظ منه"، و"ما رأيت أفضل منه"، و"ما رأيت أحدا مثله".

ج ـ عبارة "إمام" بكافة ارتباطاتها مع ألفاظ التوثيق الأخرى:

وتشمل عبارات "إمام"، و"إمام الدنيا"، و"إمام المسلمين"، و"إمام أهل زمانه"، و"إمام ثبت"، و"إمام ثقة"، و"إمام ثقة حافظ"، و"إمام حافظ ثبت"، و"إمام حافظ متقن ثبت"، وغيرها من العبارات.

د ـ عبارة "إليه المنتهى في التثبت".

ه ـ عبارة "لا يسأل عن مثله" وما يكافئها من عبارات، مثل "لم تر عيناك مثله"، و"لم أر مثله"، وغيرها من العبارات.

و ـ عبارات تلوح إلى معان تقع ضمن هذا المحور:

وتشمل عبارات "سيد المحدثين"، و"سيد المحدثين حفظا"، و"صيرفي الحديث"، و"مصحف"، و"ميزان"، سواء تكررت اللفظة أم أفردت.

٢ ـ ما تكررت عبارته مع تباين اللفظ:

وتشمل عبارات "ثقة إمام"، و"ثقة ثبت"، و"ثقة حجة"، و"حافظ ثبت".

٣ ـ ما تكررت عبارته مع اتحاد اللفظ:

وتشمل عبارات: "ثبت ثبت"، و"ثقة ثقة"، و"ثقة ثقة ثقة...."، و"ثقة ثقة وزيادة"، و"مصحف مصحف".

٤ ـ ما تكررت عبارته بأكثر من لفظ:

وتشمل حشدا من العبارات التي تضم أكثر من لفظ يشير على توفر أكثر من صفة من صفات القبول لدى الراوي. وقد شاعت هذه العبارات في الفترة التي تلت ظهور العبارات ٢، ٣).

وتتألف هذه الفئة من عبارات: "ثقة ثبت حافظ متقن"،و"ثقة ثبت حجة"، و"ثقة ثبت حجة عدل"،و"ثقة ثبت مأمون"،و"ثقة ثبت مأمون حجة"،و"ثقة ثبت متقن"،"ثقة حافظ ضابط"، وغيرها من العبارات التي يصعب حصرها في هذا المقام.

٥ ـ عبارات احتوت على إحدى محوري القبول مع صفة أخرى ترقى بها:

وتشمل عبارات احتوت على ألفاظ تلوح بالعدالة أو الإتقان مع صفة أخرى تعضدها، وتشمل عبارات: "ثبت صالح"، و"ثبت صدوق"، و"ثبت متقن"، و"ثقة أمين"، و"ثقة جبل" و"ثقة جليل"، و"ثقة مأمون"، و"ثقة خيار"، و"ثقة رضا"، و"ثقة متقن"، و"ثقة نبيل"، وغيرها كثير.

وثمة ما يجب أن نشير إليه هنا وهو أنّا لا نميل إلى الترجيح بين أصحاب الفئة الواحدة، لأننا نعتقد يقينا بأن المفاضلة ينبغي أن تكون أكثر استيعابا لسبر أكثر من عامل، وهذا يرتبط بهوية الناقد الذي أطلق هذه العبارة ودلالتها لديه، إضافة إلى الحقبة التي أطلقت فيها تلك العبارة وغيرها من العوامل التي قد ترقى بها تلك العبارة على عبارات نفس الفئة للأسباب المتقدمة.

"مراتب الفئة الأولى من المحدثين الثقاة"

ملخص: وردت ألفاظ أئمة الجرح والتعديل، في الحكم على الرواة متفقة حيناً، ومختلفة حيناً آخر، تبعاً لاختلاف اجتهاداتهم في الحكم عليهم، وللعصر الذي صيغت فيه. وقد وجدنا من الضروري دراسة إحدى شرائح ألفاظ التوثيق، فاستأثر باهتمامنا رجال الفئة الأولى من المحدثين الثقاة، لأنهم صفوة رجال الحديث، والمنار الذي يستدل به على صحة وسلامة مورده. ولغرض استيعاب هذا الموضوع ألقينا الضوء على البنية اللغوية والاصطلاحية لهذه العبارات، ثم حاولنا تتبع التطور التاريخي لهذه البنية وأخيراً عمدنا إلى تناول دلالة هذه العبارات في ميدان مصطلح الحديث. ولإصدار حكم نقدي محايد إزاء هذه العبارات اعتمدنا في عملية الموازنة على محورين: (الأول) تضمن سبر دلالة العبارة اصطلاحياً. بينما عمدنا في (الثاني) إلى تقييم دلالة العبارة على ضوء هوية الرجال الذين نالوا شرف الاتصاف بها. وقد ظهر من خلال هذه الدراسة بأن المرتبة التي تتبوؤها عبارة التوثيق ترتبط بدلالتها الاصطلاحية، وبالرواة الذين قد أطلقها النقاد عليهم. فترتقي العبارة بميزان المصطلح بارتقاء المرتبة التي تبوأها المحدث الذي نالها. على هذا الأساس، فإن مراتب الفئة الأولى من المحدثين الثقاة يمكن أن تتحدد بما يدل على التفرد بالصنعة والإمامة فيها، وما تكررت عبارته مع تباين اللفظ، أو اتحاده، وما تكررت عبارته بأكثر من لفظ، وأخيراً عبارات احتوت على إحدى محوري القبول مع صفة أخرى ترقى بها. وثمة ما يجب أن نشير إليه هنا، هو أنا لا نميل إلى الترجيح بين أصحاب الفئة الواحدة، لأننا نعتقد يقيناً بأن المفاضلة ينبغي أن تكون أكثر استيعاباً، لسبر أكثر من عامل، وهذا يرتبط بهوية الناقد الذي أطلق هذه العبارة، ودلالتها لديه، إضافة إلى الحقبة التي أطلقت فيها هذه العبارة، وغيرها من العوامل التي قد ترقى بتلك العبارة على عبارات نفس الفئة للأسباب المتقدمة.

عطف: حسن مظفر الرّزّو، "مراتب الفئة الأولى من المحدثين الثقاة"، مجلة البحوث الحديث، المجلد الخامس، العدد الثاني، ٢٠٠٧، ص. 73–88.

كلمات المفتاح: الجرح والتعديل، محدثون، رجال الحديث، طبقات، نقد، توثيق.

"Güvenilir Râvilerin İlk Sınıfı İçin Kullanılan Lafızların Dereceleri"

Özet: Cerh ve ta'dîl imamlarından râvilerle ilgili hükümler noktasında bazen müşterek bazen de farklı lafızlar nakledilmiştir. Bu, söz konusu râvilerle ilgili içtihadlarının ve lafızların ortaya çıktığı asrın farklılığından kaynaklanmaktadır. Bu çalışmada, güvenilir muhaddislerin ilk sınıfı için kullanılan lafız kategorisini incelemek üzere derin bir tetkik yapılacaktır. Araştırmamız büyük oranda bu lafızların hicrî I. asırdan X. asra kadarki dönemdeki lengüistik ve geleneksel arka plânına dayanmaktadır. Araştırma her bir lafzın derecesinin, lengüistik arka plânına ve hadis nakli sahasında bu lafızla temayüz eden güvenilir râvilerin konumuna bağlı olduğunu ortaya çıkarmıştır. Bu nedenle, somut bulgularımıza göre bu lafızların dereceleri şu şekilde sıralanabilir: hadis mesleğindeki eşsizlik ile karakterize edilen râviler, lafzın farklı veya mutabık ifadeyle tekrarı ve diğer kabul lafızlarından birisiyle desteklenen herhangi bir güven lafzı içeren ifadeler. Son olarak, bir lafzı diğerlerinden daha muhtemel kabul etmenin, konuyla ilgili diğer parametreler dikkate alınmaksızın haklılıktan mahrum kalacağının altını çiziyoruz.

Atıf: Hasan Muzaffer er-RIZZO, "Merâtibü'l-fi'eti'l-ûlâ mine'l-muhaddisîne's-sikât", *Hadis Tetkikleri Dergisi* (*HTD*), V/2, 2007, ss. 73-88.

Anahtar Kelimeler: el-Cerh ve't-ta'dîl, Muhaddisûn, ricâlü'l-hadîs, tabakât, nakd, tevsîk.